المحاضرة الخامسة
أوضاع بلدان المغرب أواخر القرن 15 وأوائل السادس عشر.
3- المغرب الأدني (الدولة الحفصية)

عرفت الدولة الحفصية منذ أواخر القرن 15 أزمة شاملة طالت مختلف المجالات وفيما يلي عرض لهذه الأوضاع .

المظاهر السياسية للأزمة:

1- انحلال السلطة المركزية: بدأ مسار التفكك والانحلال في أواخر القرن 15 ، وقد تجلى ذلك في الصراعات بين أعضاء الأسرة الحاكمة بسبب غياب قانون ينظم توارث الحكم وعجز بعض الحكام عن مواجهة الوضع.

2- فقدان السيطرة على أقاليم البلاد: أدى ذلك إلى استقلال عديد المدن عن السلطة المركزية مثل عنابة وطرابلس وقسنطينة وجربة وصفاقص وسوسة وبجاية. مما أدى إلى إضعاف الحكم المركزي وبروز قوى انفصالية داخلية ، وقد بلغ خطر القبائل أوجه مع الطريقة الشابية بالقيروان.

3- تفاقد الخطر الخارجي: كانت إفريقية مجال للصراع القوتين الإسبانية والعثمانية ودام ذلك الصراع لمدة 40 عاما ما بين 1534-1574.

مظاهر الأزمة الإقتصادية:

1- القطاع الفلاحي: انحصرت المساحة المزروعة وتراجعت الغراسات وذلك لصالح النشاط الرعوي والترحال، وتراجع الإنتاج الفلاحي عن الاقتصاد التجاري الغير متوازن مع البلدان الأوربية. وكان دور الريف يتمثل في تجميع الموارد الفلاحية وتحويلها إلى المدينة للتصدير ، وقد ارتبط تدهور النشاط الفلاحي بعوامل ظرفية تتمثل في تعسف الأعراب.

2- النشاط الحرفي: تدهور أوضا الحرفيين وأصباهم الفقر الشديد، وقد ارتبط ذلك بعدة عوامل منها منافسة البضائع الأجنبية وعدم التمكن من مجارات التطور الحاصل في المدن الإيطالية مثل مدينة جنوة والبندقية ، وثقل الضرائب المفروضة عليها.

3- تراجع النشاط التجاري: تراجع النشاط التجاري داخليا وخارجيا وتراجعت التجارة الصحراوية ، ومن العوامل المفسر لهذا الركود هي أزمة البادية والمدينة والظرفية العالمية الجديدة منها الاكتشافات الجغرافية ، مما أدى إلى تراجع نشاط الموانئ الحفصية.

المظاهر الإجتماعية للأزمة:

1- تفكيك المجتمع: يتجسم ذلك في التنافر بين السكان المستقرين في المدن والقبائل الرحل وسبه الرحل. وساهمت فتاوي العلماء في المزيد من التوتر مثل فتاوي ابن عرفة التي تحث على مقابلة الأعراب تفكك المجتمع الحضري نتيجة تباين مواقف ربض باب السويقة وباب الجزيرة تجاه حملة خير الدين بربروس سنة 1534 على تونس حيث برزت مواقف مساندة للسلطان وأخرى مساندة لخير الدين.

2- **انتشار الطرق الصوفية:** يعود انتشارها إلى القرن 13 ، وزادت انتشارا في أواخر القرن 15 والقرن 16.وارتبطت بالظروف المتسمة بانعدام الأمن وتعدد الآفات وبتصاعد الخطر المسيحي.

أسباب سقوط الدولة الحفصية:

ـ اعتمادها للمنهج المنحرف الذي نظر له ابن تومرت، وحرصها على تبني عقيده الفاسدة بعد أن انكشف زيف العقيدة التومرتية ومنهجه البدعي لكثير من أهالي الشمال الإفريقي، فأصبح الولاء ضعيفاً للفكر التومرتي حتى عند أمراء الدولة الذين تابعوا تبني منهج ابن تومرت كمناورة سياسية من أجل القضاء على بقايا دولة الموحدين.

ـ الصراع الداخلي على الحكم بين أبناء البيت الحفصي، وما ترتب على ذلك من صراع عنيف وقتال دموي.

ـ استقلال بعض المدن كإمارات مستقلة عن عاصمة الحفصيين، فتضطر أحيانا الدولة لتجريد الجيوش وتجهيزها من أجل إخضاع المدن لسلطانها، فيكلفها ذلك الكثير من الأموال والعتاد والرجال، وأحيانا تنهزم جيوش الدولة أمام مقاومة المدن الضارية.

ـ استُهدفت مدن الدولة الحفصية من قبل الإسبان النصارى والأوروبيين عموماً، فعملوا على تنصير الشمال الإفريقي والانتقام من المسلمين، واستغلال خيراتهم وثرواتهم، فدخلت الدولة في صراع معهم انتهى بالتحالف بين الإسبان والحفصيين.

ـ ظهور قوى إسلامية سنّية أصيلة متمثلة في السلطنة العثمانية، والتي استطاعت أن تهزم النصارى في ميادين البر وميادين البحر، وكان دافع الدولة العثمانية في صراعها مع النصارى ؛ نصرة الإسلام والمسلمين وحب الجهاد في سبيل رب العباد.

ـ تطلّع أهالي الشمال الإفريقي إلى قوة إسلامية سنّية تقوم بتحريرهم من الإسبان ومن الأمراء الذين تحالفوا معهم، ولم يحترموا مقدسات الأمة وعقيدتها ودينها، فوجدوا في العثمانيين بغيتهم فراسلوهم واتصلوا بهم، وتعاونوا على البر والتقوى، من أجل إعزاز الإسلام والمسلمين، ودحر النصارى الغاصبين.

3- ـ كان سقوط دولة الحفصيين نتيجة طبيعية لما آلت إليه الحال من التنازع بين المسلمين، وعدم حرصهم على سلامة وحدة الأمة وأهدافها العظمى.

ـ ظهور الخطر الأوربي:

وفي جو تلك الاضطرابات الداخلية التي تميزت بها الممالك المغربية ، استغلت بعض الدول الأوربية تلك الحالة ، فحصل بعض ملوكهم على امتيازات لجالياتهم خولت لهم فيما بعد مطلق الحرية في تصرفاتهم . فقد ستطاع ملك فرنسا لويس الحادي عشر خلال سنة 1482 عقد معاهدة تجارية مع بجاية ، التزم فيها ملك بجاية ضمان أمن الجالية الفرنسية الموجودة في مملكته ، حيث كانت تلك الجالية ((تسكن فنادق خاصة بها ، وكل جالية يخصص لها فندق يقيم فيه أفرادها تحت نظر قنصلها الذي كان يسكن معها ، فالفندق كان مخصصا للسكن والتجارة ، وكانت عبارة عن قرية تشمل على كنيسة ومقبرة)). وقد أدى ذلك إلى تردي الأوضاع في المدينة، حيث وصف تلك الحالة الفقيه أحمد الشريف البجائي ، ضمن السؤال الذي وجهه إلى أستاذه أحمد بن الحاج البيدري التلمساني بعد عودته من تلمسان فقال: ((ماجوابكم في موضع كثر فيه الظلم والأشرار وانتشر فيه الباطل ، وذل فيه

المسلمون ، وعز فيه الكفار ، وارتفع فيه الجور والظلم ، واتضع فيه أهل والمعرفة العلم ، تمكس فيه جل المبيعات على المسلمين)) .

هكذا بدأ التغلغل الأوربي العسكري نشاطه في المنطقة منذ بداية القرن الخامس عشر ، ففي سنة 1415 احتل ملك البرتغال يوحنا الأول مدينة سبتة الساحلية ، وفي عام 1458 ، قام بعده ألفونسو الخامس باحتلال قصر المجار . وبعد ذلك بسنوات استولى على أرزيلا على المحيط الأطلسي ، وعلى طنجة في سنة 1471 . بينما انصبت أنظار مملكة أراغون نحو إفريقية الحفصية ، وأنظار مملكة قشتالة على البقية الباقية من مملكة غرناطة . حيث غزا ألفونسو الخامس جزيرة جربة سنة 1432 . لكنهم لم يبقوا فيها سوى سبعة وعشرون يوما فقط . ولم يكن المغرب الأوسط بمعزل عن تلك الأخطار ، فقد تردد عليه عدد من الجواسيس الأوربيين في صورة تجار أو غير ذلك من المهن ، الذين كانوا مبعوثين من قبل الملوك الأسبان.

لقد تنبه بعض الأعيان والعلماء الجزائريون لتلك الأخطار التي أخذت تهدد الأراضي الأراضي الجزائرية وغيرها من بلاد المغرب ، ولعل من أشهرهم الشيخ عبد الرحمن الثعالبي ، الذي بعث برسالة في الجهاد إلى أحد تلاميذه في نواحي بجاية ، وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد، يدعوه فيها لإقناع العوام بوجوب الاستعداد للجهاد لمواجهة الأعداء ، ولم يكتف الثعالبي بحث العامة فقط بالخطر المحدق بهم ، بل بعث رسائله إلى الفقهاء أيضا ومما جاء في نص الرسالة : ((أكتب رحمك الله لإخواننا ببجاية وحذرهم ليتيقظوا ويعملوا ما أشرنا إليه ... ولو اطلعتم على ما اطلعت عليه من التحريض لما وسعكم أن تشتغلوا بشيء من أمور مهامكم بعد الصلاة إلا بآلة الجهاد)). وبعد سقوط غرناطة واحتلال الإسبان لبعض المدن الساحلية لبلاد المغرب ن أنذر الأديب الشيخ محمد التواتي سكان مدينة وهران بقصيدة مطولة منها البيتين التاليين:

يا أهل وهران انظروا نظرة شفقة لبلدكم من قبل أن تتردى
وقبل مجيء المنشـــــــــــآت ببحرها وأي قلوب عندها مستقرتي

ولعل عدم الحيطة والحذر من التحرش الأوربي تجاه البلاد ، التي لم تحضى بالعناية من جانب ملوك وعلماء وعامة الناس جعلت المنطقة تتعرض إلى تلك الهجمة الصليبية الجديدة التي بدأ فصولها منذ أواخر القرن الخامس عشر واستمرت طوال القرن السادس عشر.